

١١ — محي الدين بن العربي

كلمة عامة في التصوف

نشأ علم التصوف ونضج في العصر العباسي الثالث وهو من العلوم الشرعية الحادثة وأصله المكوف على العبادة والانتقطاع الى الله تعالى والاعراض عن زخرف الدنيا وزينتها والزهد فيها من لذة ومال وجاء والانفراد عن الخلق في الخلوة للعبادة واختلف علماء الاسلام في أصل كلمة التصوف أو الصوفية فقال جماعة باشتقاقها من الصفاء أو الصفة وقال آخرون غير ذلك ويرى ابن خلدون أن اشتقاقها من الصوف أقرب الى الصواب لاختصاص أصحابه بلبس الصوف ونحن نخطئه في هذا التعليل ونعتقد أنها مشتقة من كلمة ثيوصوفيا اليونانية ومعناها الحكمة الالهية والصوفي هو الحكيم الذي يطلب الحكمة الالهية ويسمى لها والوصول الى الحقيقة الالهية هو غاية الصوفي أو المتصوف . وذلك لأن الصوفية كانوا يبحثون في ما يقولونه أو يكتبونه بحثاً فلسفياً في سبيل الحقيقة العليا . ومما يؤيد هذا الرأي أن الصوفية لم يظهروا بعلمهم هذا ولا عرفوا بهذه الصفة إلا بعد ترجمة كتب اليونان الى العربية ودخول لفظ الفلسفة فيها .

الطريقة الصوفية ومراتبها ودرجاتها

ومدار الطريقة الصوفية أو خطتهم العملية في السعي وراء الحقيقة للوصول اليها محاسبة النفس على الأفعال والتروك وآداب خاصة بهم واصطلاحات في الفاظ تدور بينهم يدلون بها على ما يريدونه من أساليب المجاهدة ومحاسبة النفس عليها والكلام في الأذواق والمواجد العارضة في طريقها وكيفية الترقى من ذوق الى ذوق وشرح الاصطلاحات التي تدور بينهم .

وللمتصوفين اصطلاحات خاصة بمراتبهم بعضها معلوم وذائع على الألسنة وفي مجالسهم وبعضها يعد من الأسرار المكتومة وقد أفاض كثيرون من المؤلفين في ذكر تلك المراتب بحيث يحسب القارىء أن للقوم نظاماً باطنياً خفياً في الظاهر، قوى الأثر في الحقيقة فمنهم الأوتاد، والابدال، والأقطاب، وأعظمهم القطب الغوث وهذه المراتب يتولاها البعض طول حياته والبعض مدداً محدودة وقد يترك صاحب إحدى تلك المراتب ميراثه لواحد أو أكثر من مريديه أو غيرهم ولذلك أخبار مشهورة عند القوم،

وفي كل زمان ينفرد القطب الغوث بهذا المنصب ولذا يسمى أيضاً صاحب الوقت ومن هؤلاء الأقطاب الغوثية كثيرون من الأولياء ذوى المقامات والأضرحة المشهورة، ويقال في أعمال هؤلاء الصالحين أنهم أرباب وظائف أهمها الاشراف على النظم الكونية، والاشتراك في تدبير الأمور العامة والخاصة بطرق معلومة للقوم ولا يعرفها إلا ذووها

وقد صرح كثيرون من المؤلفين بهذه الأمور، وأشار البعض إليها تلميحاً، فتكلم لسهروردى في أنواع الصوفية وفي ذكر (الملامتى) وشرح حاله وهو الذى يكون في ظاهر حياته ما يدعو الى الملامة، وتكلم في رتبة المشيخة وانها أعلا الرتب في طريق الصوفية بل هي نيابة النبوة في الدعاء الى الله، والسرف في وصول السالك الى رتبة المشيخة أنه مأمور بسياسة النفس كما يشاء الشيخ وهذا الدر هو في الآية الشريفة « لو انفق ما فى الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم، ولكن الله ألف بينهم »

ويكون فى الشيخ حينئذ معنى التخلق باخلاق الله تعالى، ويصير المرید جزءاً من الشيخ، كما أن الولد جزء من الوالد، بولادة معنوية وإلى هذا المعنى الدقيق العجيب أشار سيدنا يسوع المسيح بقوله « لا يدخل ملكوت السماء من لم يولد مرتين » ولهذا يقولون كان الشيخ محيى الدين بن العربى على قدم السيد المسيح، كما كان غيره على قدم سيدنا موسى (ص) وبمثل هذه الولادة يستحق السالك ميراث الأنبياء، وهذا تفسير قولهم « أن العلماء ورثة الأنبياء » .

أما السالكون فينقسمون الى أربعة أقسام وهم :

- ١ - السالك المجرد
- ٢ - المجذوب المجرد
- ٣ - السالك المتدارك بالجدبة
- ٤ - المجذوب المتدارك بالسلوك

أما الأول فلا يؤهل للشيخية ولا يبلغها، والثاني لا يؤهل للشيخية، وأما الثالث يؤهل للشيخية، ويكون له اتباع تنقل منه اليهم علوم، والرابع هو صاحب المقام الأكل في الشيخية

تعريف الصوفية وأصل تسميتها

التصوف اسم لثلاث معان :

- ١ - الذي لا يطفى نور معرفته نور ورعه
- ٢ - ولا يتكلم بباطن في علم ينقضه عليه ظاهر الكتاب أو السنة
- ٣ - ولا تحمله الكرامات على هتك أستار محارم الله

قال الجنيد « ما أخذنا التصوف عن القيل والقال ، ولكن عن الجوع وترك الدنيا وقطع المألوفات والمستحبات » ويقصد بذلك المجاهدة والمكافحة اللتين يعقهما الوصول الى الذوق

قلنا أن العلماء اختلفوا في أصل التصوف ومعناه ، وذكر الشيخ شهاب الدين أبو حفص عمر بن محمد عبد الله السهروردي في كتاب « عوارف المعارف » في نسخة كانت ملكا للمرحوم الشيخ محمد محمود الشنقيطي بن التلاميذ التركزي ، وهي مما وقفه سنة ١٢٩٤ هـ وقفا مؤبدا على عصبه بعده بخطه ، ووصلت إلينا استعارة ، في ذكر منشأ علوم الصوفية :

« أن رسول الله (ص) قال « إنما مثلى ومثلى ما بعثنى الله به ، كمثل رجل أتى قوما فقال يا قوم إني رأيت الجيش بعينى وإني أنا النذير العريان ، فالنجاء النجاء ! فطاعه طائفة من قومه فادجلوا فأنطلقوا على مهلم فنجوا ، وكذبت طائفة منهم

فأصبحوا مكانهم فصبحهم الجيش فأهلكهم واجتاحهم ، فذلك مثل من أطاعنى فاتبع ما جئت به ، ومثل من عصانى وكذَّب بما جئت به من الحق »

و يريد هؤلاء العلماء من هذه الفرقة أن الذين أطاعوا الرسول (ص) صفت قلوبهم فصاروا « صوفية » (من الصفاء) وانهم بالتقوى زكت نفوسهم ، وبالزهد صفت قلوبهم ويقول الامام السهروردي أن الصوفى هو المقرب ، وإن لم يرد فى القرآن ، وإن هذا الاسم يطلق على أهل القرب الذين يتزبون بزى الصوفية ، ومشايخ الصوفية كلهم كانوا فى طريق المقربين ، وعلومهم علوم أحوال المقربين ، ومن تطلع الى مقام المقربين من جملة الابرار فهو متصوف ما لم يتحقق بحالم ، فاذا تحقق بحالم صار صوفياً ، ومن عداها (المتصوف والصوفى) ممن تميز بزى ونسب اليهم ، فهو متشبه بهم

أما الشيخ أبو القاسم عبد الكريم بن هوازن القشيرى وهو من أئمة هذه الطائفة ومن خير من كتبوا فى علومها وآدابها فقد قال فى باب التصوف فى صفحة ١٦٤ من كتابه الشهير باسم « الرسالة القشيرية » « فقد رُدُّ منشأ الصوفية الى حديث عن أبى جحيفة أنه قال « خرج علينا رسول الله (ص) متغير اللون فقال « ذهب صفو الدنيا وبقي الكدر ، فالموت اليوم تحفة لكل مسلم » ويقول الأستاذ القشيرى هذه التسمية غلبت على هذه الطائفة ، وليس يشهد لهذا الاسم قياس ولا اشتقاق

ونفى نسبة هذا الاسم الى لبس الصوف ، لأن القوم لم يختصوا بلبسه ، ونفى نسبتهم الى صُفَّة مسجد رسول الله (ص) بالمدينة ، ونفى نسبتهم أيضاً الى الصفاء لأن اشتقاق الصوفى من الصفاء بعيد ، وكذلك نفى نسبتهم الى الصف الأول ، ولم يهتد الشيخ القشيرى الى صحة النسبة ، وعندنا ولو كره المكابرون ، أنها من كلمة « ثيوصوفيا » اليونانية كما تقدم ، ومعناها الحكمة الربانية ، فالصوفى هو الحكيم فى سبيل الله

أما تعريف التصوف ومعناه ، فقد عبر كل منهم بما وقع له فى أثناء سلوكه وقال رُويم ابن احمد البغدادى أن التصوف مبنى على ثلاث خصال

(١) التمسك بالفقر والافتقار (٢) التحقق بالذل والايثار (٣) ترك التعرض والاختيار

وقد أجمع العلماء الصوفية فى تعريف الصوفى على « أنه رجل أحب الله فأثره وكره

الدنيا فزهد فيها »

بعض اصطلاحات الصوفية المنفق عليها

ان للصوفية الفاظاً يستعملونها ، انفردوا بها عن سواهم ، وتواطؤوا عليها لأغراض لهم وهذا من قبيل اللغات الرمزية الشائعة بين الطوائف في الشرق والغرب ، وألف فيها علماء أورو با كتباً ومعاجم باسم روح « الارجو » أو الملاحن وأهمها كتاب العالم الايطالى (نيتشوفورو) ومن هذه الألفاظ :

(الوقت) ومعناه وقتك الذى أنت فيه كوقت الدنيا ، ووقت السرور ، ومن أقوالهم « الاشتغال بفوات وقت ماضٍ تضييع وقت ثانٍ » وقولهم أيضاً « صاحب الوقت » يقصدون « القطب النوث » ومن ذلك :

(المقام) وهو موضع الإقامة بضرب تطلب ، ومقاساة تكلف

(الحال) معنى يرد على القلب من غير تعمد ولا اجتلاب

(القبض والبسط) وهما حالتان بعد ترقى العبد عن حالتي الخوف والرجاء

(الهية والأنس) وهما فوق القبض والبسط ، كما أن القبض والبسط فوق

الخوف والرجاء

(التواجد والوجد والوجود) ومعناها فى حكاية معروفة بين أبى محمد الجريرى

والجنيد

(الجمع والفرق) قال فيهما أبو على الدقاق « الفرق ما نسب اليك والجمع

ما سلب عنك »

(جمع الجمع) هو الاستهلاك بالكلية وفناء الاحساس وفوقها درجة :

(الفرق الثانى) وهو أن يُرد صاحب هذه المرتبة الى الصحو عند أوقات

اداء الفرائض

(الفناء والبقاء) أولهما سقوط الأوصاف المذمومة ، وثانيهما قيام الأوصاف المحمودة ،

ولهما معان أخرى ليس هذا مقام شرحها

(الغيبة والحضور) تكون الغيبة للقلب عن علم ما يجرى من أحوال الخلق لاشتغال الحس بما ورد عليه ، والحضور معناه أن يكون السالك حاضراً بالحق لأنه اذا غاب عن الخلق حضر بالحق

(الصحو والسكر) الصحو رجوع الى الاحساس بعد الغيبة والسكر غيبة يوارد قوى (الذوق والشرب) وهو ما يجده المتصوف من ثمرات التجلى ونتائج الكشوفات وبواده الواردات ، وأعلى منهما درجة :

(الرى) فيقولون صاحب الذوق متساكر ، وصاحب الشرب سكران ، وصاحب الرى صاحب ، ومن قوى حبه ، تسرمد شربه

(المحق والاثبات) المحق رفع أوصاف العادة ، والاثبات إقامة أحكام العبادة (الستر والتجلى) ويقصد بهما أن العوام في غطاء الستر ، والخواص في دوام التجلى (المحاضرة والمكاشفة والمشاهدة) وهى ثلاث درجات

(اللوائح والطوائع واللوامع) وهى من صفات أصحاب البدايات الصاعدين فى الترقى بالقلب ، أضعفها الأولى وأقواها الأخيرة

(البواده والهجوم) البواده ما يفجأ قلب السالك من الغيب على سبيل الوهلة ، والهجوم ما يرد على القلب بقوة (الوقت) من غير تصنع

(القرب والبعد) أول رتبة فى القرب الاتصاف بالعبادة ، والبعد التدنس بالمخالفة والتجافى عن الطاعة

(الشريعة والحقيقة) الشريعة أمر بالتزام العبودية والحقيقة مشاهدة الربوبية ، وكل شريعة غير مؤيدة بالحقيقة فغير مقبولة ، وكل حقيقة غير مقيدة بالشريعة فغير محسولة (النفس) صاحب الانفاس أرقى وأصفى من صاحب الأحوال

فيقال عند القوم ، صاحب (الوقت) مبتدى ، وصاحب (الأحوال) فى وسط (الطريق) وصاحب (الانفاس) منتهى

(الخواطر) خطاب يرد على الضمائر وقد يكون من المالك فهو الهام ، وقد يكون من النفس فهو هاجس ، ويكون من الشيطان فهو وسواس ، ويكون من الله سبحانه وتعالى فيكون خاطر حق وهذا ما أردنا إيرادَه من تلك المصطلحات بإيجاز لئلم بها القارىء . ويقف منها على تلك المعاني

ولم بعد ذلك آداب ، وطرق في الحياة هي أشبه الأشياء بدستور التصوف ، استنبطه العلماء من أخلاق المشايخ والواصلين ، وآدابهم الكاملة ومن تلك الآداب والقواعد ، التوبة والمجاهدة والخلوة والتقوى والورع والصمت ، والخوف والرجاء ، والحزن والجوع وترك الشهوة والخشوع والتواضع ، وترك الحسد والغيبة ، والفنائة والتحلّى بالقناعة والشكر ، والصبر والرضا ، والاستقامة والمبودية ، والصدق والحياء ، والبقاء بباب المراقبة ، والاستسلام للارادة ولم آداب في العشرة ، وأحكام في السفر والصحبة

ذكر أشهر مشايخ الطريقة الصوفية الأقدمين

(١) أبو اسحق إبراهيم بن آدم بن المنصور من كورة بلخ تعلم اسم الله الأعظم من رجل بالبادية ودخل مكة وكان يعيش من عمل يده بعد أن كان أميراً من أبناء الملوك وتوفى في عام ١٦١ هـ

(٢) ثوبان بن إبراهيم أبو الفيض ذو النون المصري توفى سنة ٢٤٥ هـ وهو مولد كان أبوه نوبياً ، وسبب توبته أنه رأى تيسير الرزق لقنبرة عمياء في الصحراء فتاب ولزم الباب

(٣) أبو علي الفضيل بن عياض من ناحية مرو بخراسان توفى سنة ١٨٧ هـ وكان أصله من قطاع الطريق وأحب جارية فارتقى الجدران إليها فسمع تالياً يتلو « ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله ؟ » فتاب عن جرائمه وتعلق بمشق أعظم من عشق الجارية

(٤) أبو محفوظ معروف بن فيروز الكرخي توفي سنة ٢٠٠ هـ ولد على غير دين الاسلام ثم أسلم وكان مبدؤه العمل وهو في عرفه طاعة الله وخدمة المسلمين والنصيحة لهم .
(٥) أبو الحسن سري بن المفلس السقطي كان تلميذ الكرخي و دخل الجند وأستاذه توفي سنة ٢٥٣ هـ ، وكان يقول بنظرية استاذه في « الطمأنينة »

(٦) أبو نصر بشر بن الحرث الحافي أصله من مرو توفي سنة ٢٢٧ هـ قيل انه بلغ منازل الأبرار باتباعه السنة وخدمة الصالحين ونصيحته لآخوانه ومحبة لأصحابه واهل بيته

(٧) أبو يزيد طيفور بن عيسى البسطامي توفي سنة ٢٦١ هـ وكان جده مجوسيا ، وهو من أئمة الصوفية وأعلامهم وله مؤلفات جليلة وأتباع كثيرون .

(٨) أبو القاسم الجنيد سيد هذه الطائفة وأمامهم أصله من نهاوند ومنشؤه ومولده بالعراق — قال « ان علمنا هذا (التصوف) مقيد بالكتاب والسنة »

وله كلام صريح بأنه تلقى علمه من الله مباشرة فقد قيل له من أين استفدته فقال :
« من جلوسى بين يدي الله ثلاثين سنة تحت تلك الدرجة » وأوماً الى درجة في داره .

(٩) أبو عثمان الحيرى توفي سنة ٢٩٨ هـ كان من الرى وأقام بنيسابور

(١٠) أبو عبد الله أحمد بن يحيى الجلاء ، وهبه أبواه الله عز وجل وكان من اكابر المشايخ وعاقبه الله بنسيان القرآن لأنه رأى انساناً جميلاً فسأل أستاذه ان كان الله يعذبه فقال له أستاذه : أو نظرت ؟ سترى غيبه ! أى نتيجة النظرة والاعتراض ، فكان ماكان .

(١١) أبو سعيد حسن بن أبي حسن يسار الميساني البصري يرجعون مولده بالمدينة عام ٢١ هـ . وكان أبوه مقتوق زيد بن ثابت وأمه خيرة خادمة أم سلامه نشأ بالبصرة وعاش بالمدينة وجاهد وعلم وتولى القضاء بالبصرة وتوفي سنة ١١٠ هـ في التسعين من عمره .

(١٢) أبو عبد الله الحسين بن منصور الحلاج المكنى بابي المغيث ولد بالطور بالبيضاء سنة ٢٤٤ هـ ونشأ وتربى بواسط ورحل الى مكة والهند وتركستان وحوكم مرتين وحكم عليه بالسجن ثم بالصلب فاستشهد في ذى القعدة سنة ٣٠٩ هـ .

بعض فطاحل المتصوفين الذين ألفوا كتباً

١ - تاج الدين بن عطاء الله الاسكندري الشاذلي توفى سنة ٥٧٠٩ هـ وقبره بالقاهرة بسفح جبل المقطم .

مؤلفاته

- (١) الحكم العطائية طبع بمصر مع شروح سنة ١٢٨٤ و سنة ١٣٠٦ هـ
- (٢) تاج العروس وقع النفوس في الوسايا طبع مراراً
- (٣) لطائف المنن في مناقب الشيخ أبي العباس المرسى وشيخه أبي الحسن الشاذلي . في ٦٠٨ صفحات مطبوع في مصر

٢ - جمال الدين عبد الرزاق النكشاشي توفى سنة ٧٣٠ هـ

مؤلفاته

- (١) اصطلاحات الصوفية طبع كلكتا سنة ١٨٤٥ م
- (٢) رسالة في القضاء والقدر طبع سنة ١٨٧٥ هـ
- وقد ترجمت اصطلاحاته الى اللغات الاوروبية وطبعت بها ، وله بالقاهرة ضريح مشهور بشارع « تحت الربيع »

٣ - عفيف الدين عبد الله بن أسعد اليافعي توفى سنة ٧٦٨ هـ

مؤلفاته

- (١) روض الرياحين ، طبع في مصر سنة ١٣٠١ هـ
- (٢) أسنى المفاخر في مناقب الشيخ عبد القادر (خطية في برلين)
- (٣) مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة حوادث الزمان وتقلب أحوال الانسان (خطى في مكاتب أوروبا)

٤ - قطب الدين عبد الكريم بن ابراهيم بن سبط عبد القادر الجبلى ، توفى

سنة ٨٢٦ هـ

مؤلفاته

- (١) التاموس الاعظم والتاموس الاقدم في أربعين مجلداً (خطى في أوروبا ومصر)
- (٢) الانسان الكامل في معرفة الاوائل والأواخر (طبع بمصر)

٥ - عبد الرحمن البسطامي الحنفي الحزوني توفي سنة ٨٥٨ هـ في (بروسه)

مؤلفاته

(١) الفوائح المسكية في الفوائح المسكية

(٢) الدرر في الحوادث والسير

(٣) تراجم العلماء

(٤) مناهج التوسل في مباحج التوسل

٦ - ابن أبي بكر الجزولي السملالي ، توفي في أواخر القرن التاسع

مؤلفاته

(١) دلائل الخيرات وشوارق الأنوار في ذكر الصلاة على المختار وهو كتاب مشهور

يستعمله كثيرون من المسلمين للتعبد بالصلاة على النبي (ص) ويستظهره بعضهم

٧ - محمد بن سليمان الكنهجي ، توفي سنة ٨٧٩ هـ ، وولد ببلاد الروم ، وتعلم في

تبريز والقاهرة

مؤلفاته

(١) التيسير في علم التفسير

(٢) تفسير آيات متشابهات

٨ - أبو عبد الله محمد بن يوسف الحسني السنوسي الصوفي ، توفي سنة ٨٩٢ هـ

مؤلفاته

(١) كتاب عقيدة أهل التوحيد ، المخرجة من ظلمات الجهل ، وريقة التقليد

(٢) عقيدة أهل التوحيد الصغرى وتسمى « أم البراهين » وقد ترجمت الى الالمانية

والفرنسية وطبعت في (ليزج) سنة ١٨٤٨ م وفي الجزائر سنة ١٨٩٦ م

٩ - شهاب الدين احمد بن زروق البرنوسي البرلسي الفاسي ، توفي سنة ٨٩٨ هـ

به كتب عديدة في التصوف

منشأ التصوف وتطوره

أما منشأ التصوف الاسلامي ففي قراءة القرآن واستمرار تلاوته بصفة عامة، في مجالس معينة غير مجالس « الذكر برفع الصوت » وقد تحولت مجالس الذكر الى « السماع » وذكر أوائل المتصوفين أمثال ذى النون المصرى والجنييد والحلاج ، ان « السماع » يحدث « الوجد »

ولكن فرقة « الملامية » ، وهم من الصوفية الذين لهم حال خاصة بها ، أفاض في وصفها السهر وردى في الجزء الثانى من كتاب « عوارف المعارف » انتقدوا « السماع » وعدوه من الشهوات الروحانية ، وانتقده الحلاج ، وشبه الذكر بمجوهرة ثمينة تحجب المعبود عن العابد ، ورد أصحاب « السماع » من صوفية بغداد على منتقديهم من « الملامية » وغيرهم بأن السماع لا يقصد لذاته انما يقصد لاحداث « الوجد » و« قد الاحساس » وقد كانت هذه هى الحالة فى القرن الرابع الهجرى

وفى القرن السابع الهجرى نزل بالعراق والشرق العربى متصوفون من الهند اقرب الى المشعوذين من الحكماء الالهيين ، فانهم أدخلوا على حلقات الصوفية صنوفاً من الخدراات الصناعية نضرب عن ذكرها صفحاً وأطلقوا عليها اسم « بنج اسرار »

ثم دخلت على الذكر طرائق غريبة عنه مثل الرقص ، الذى علله متحلوه وبرروه بتثيل دورة الافلاك ، وهو لا يزال شائعاً الى يومنا هذا فى تكايا الدراويش « المولوية » ثم أدخلوا عادة « التمزيق » والمقصود بها تمزيق الثياب أثناء الذكر وهذه العادة اقرب الى تقليد الامراء الذين كانوا يسمعون الغناء من القيان فيطربون فيمزقون ملابسهم ثم انحدر الذكر الى أعمال تقرب من الشعوذة مثلما يحدث من بعض الفرق من الطرق الصوفية ، كالرافعية بالبصرة ، والبيومية بالقاهرة ، والعيسوية بمكناس بالمغرب الأقصى ، ومن ذلك اكل الحيات والافاعي وشظايا الزجاج واللهب ، ووخز البدن بأثر من الحديد الحمى

وقد استنبط الصوفيون من القرآن جميع الرموز والاشارات التي استعملوها في طرقهم كالضوء والنور والنار والشجرة والشراب والكأس والسلام ودخول المقرين والهلل والطريق في جبل غريب والسفر والاسراء وحديث الغبطة ويوم المزيدي الذي وصفه بالاسهاب الشيخ المحاسبي في كتاب « التوهم » والدير والشراب من يد الساق في ضوء الشمع وتتلوه عبادة الشمس

ثم أن المسائل التي في الشرع الظاهر هي عين مسائل الصوفية كالعدل والرضا والتوكل والتفويض والتفصيل وقدم المحدثات وتقدم الشواهد والتخلق بأخلاق الله عز وجل والانتقال من التجريد الى التوحيد

ثم انتبه أهل السنة الى بعض ما ينتقد من أحوال الصوفية كقولهم « ان الخلعة تمنع الرخص والاباحة بعد موت الشهوات ، وتفضيل الغنى على الفقر ، ثم الملامسة فالحلول » فلما ظهر ذو النون المصري وابن أبي الحواري بمبادئهما مثل « المتعة » و « تقديس عين الجمع » و « سبحاني .. » لم يتردد أهل السنة في اضطهاد المتصوفين ، فحكم على البسطامي والخراز والتستري بالنفي

أما الحلّاج وابن عطاء فقد صلبا ومثلهما

وفما يتعلق بالامام الحلّاج فنحيل القارئ الى الحب للاستيفاء الى الكتاب العجيب الممتع الذي ألفه باللغة الفرنسية العلامة « لوز ماسنيون » في جزئين كبيرين باسم « تعذيب الحسين بن منصور الحلّاج الشهيد الصوفي في الاسلام الذي نفذ فيه القصاص في بغداد في ٢٦ مارس ٩٢٢ م » طبع باريس سنة ١٩٢٢ م أي بعد استشهاد ذلك الامام بألف سنة

فلما حصل التنبيه الأول بتوقيع العقوبات من أهل السنة على بعض أهل التصوف جاء السراج في كتاب « الملع » ونبه المريد والسالك الى ما لا يجوز أن يصرح به كالغناء عن العبودية والبشرية والحلول بالأنوار والشواهد والمستحسنتات ، وأيده السلمي في كتاب « الغلطات » والغزالي في « الاحياء »

ولا شك في أن أهل السنة ذعروا من اتحال الصوفية بعض الأقوال التي يشكل فهمها على غير خواص القوم كقول ابن طاهر المقدسي بأن الخدمة أفضل من العبادة، فإن هذا كله أدى الى نظرية (الشاذ) وفيها كلام يقوله الصوفيون ويكاد يكون غير مفهوم لسواهم مثل أقوال الشبلي والحلاج، أما شاذيات الكيلاني والرفاعي وابن العربي فلا يدرك القارىء من معناها شيئاً ما لم يكن أحد رجلين : الأول المفتوح عليه من الله والثاني المتغلغل في أسرار القوم، وقد وصف بعضها العلامة محمد بن شاكر بن أحمد الكتبي بقوله « الذي نفهمه من كلامه (يعنى كلام الشيخ محي الدين بن العربي) حسن، والمشكل علينا نكل أمره الى الله تعالى، وما كلفنا اتباعه ولا العمل بما قاله »

ونحن نقسم المبهم من كلامهم الى قسمين :
القسم الأول عبارة عما أطلقوه من الأسماء للأحوال والمقامات، واستعملوا الدلالة عليه الفاظاً لها عند غيرهم معانٍ عادية مثل « الفقه » و « النية » و « النفاق » و « الرضا » و « الفتوة » واتخذوها للدلالة على درجات في طريق الوصول وشرحها الهراوى بما فيه الكفاية في كتابه « منازل السائرين »

القسم الثانى وبدخل فيه نظرية « الشاذ » المذكورة آنفاً، وهى ظاهرة نفسانية تجلت بكلام مبهم يثقله أهل السنة وغير الراسخين كقول بعضهم « قدمى على رقاب الأولياء »

(الأحاديث القدسية)

ولما كان المتصوفون يذكرون أقوالاً شتى ذات معانٍ مختلفة يطلعون عليها في حالاتهم بالالهام أو الوحي أو التجلى أو الفتوح الربانى فقد ظهرت نظرية « الأحاديث المرسلة » و « الأحاديث القدسية » وضرب الصوفيون صفحاً عن الاصطلاحات المعتبرة والمنفق عليها في علوم رواية الحديث واسناده

ومن اشتهروا براوية بعض الأحاديث القدسية السادة :

ابوذر الغفارى وله حديث « من تقرب الى شيراً . . »

وكعب وله حديث « يد الله مع الجماعة »
وابن مسعود وله حديث « طوبى لمن لم يشغل قلبه بما ترى عيناه »
وحسن البصرى وله حديث « من عشقنى عشقته »
وزيد الرقاشى وله حديث « غبطة المتحابين »
وابن أدهم وله حديث « كنت سمعته وبصره . . الخ »
ويحيى بن معاذ الرازى وله حديث « من عرف نفسه فقد عرف ربه »
وقد اختلف هؤلاء المشايخ إقداماً وتردداً فى نسبة هذه الأحاديث الى مصدرها
الأصلى فنسبها بعضهم إلى أنبياء سابقين كما فعل ابن أدهم بنسبته الحديث الى سيدنا
يحيى بن زكريا وبعضهم مثل الحلاج قال أنها ثمرة الفكر والالهام ولم يخف من أمرها شيئاً
وفى كتاب الأحياء أحاديث كثيرة بغير اسناد ولا اعتراض لنا على الغزالي فى ذلك
لأن كتابه كتاب أخلاق وآداب دينية وليس متناً من متون الحديث

سلسلة الطريق

منذ القرن الخامس الهجرى بدأ أرباب الطرق الصوفية يبحثون عن أسانيد سلسلتهم
فى أخذ الطريق فردهم العلماء الى التابعين فالصحابه فالرسول (ص) وكانوا قبل ذلك
بمائتى عام يكتبون بالحزقة أو « بالشهرة بلباس »

وفى القرن الرابع روى جعفر الخلدى أول اسناد لسلسلة الطريق فوضعها مبتدئاً
بأستاذه وشيخه :

- (٦) الجنيد المتوفى عام ٢٩٨ هـ أخذ الطريق عن :
(٥) سرى » » ٢٥٣ هـ وقد » » :
(٤) معروف » » ٢٠٠ هـ » » :
(٣) فرقد سنجى » » ١٣١ هـ » » :
(٢) حسن البصرى » » ١١٠ هـ » » :
(١) انس بن مالك » » ٩١ هـ

وفد تعدت هذه السلسلة ولم تثبت على حال فأضيف اليها رجال أمثال الامام على وداود الطائي وغيرهما

والعلم الصحيح لا يجعل لهذه السلسلة شأنًا عظيمًا من حيث الشكل لأن الصوفية إنما اضطروا لذكرها اضطراباً مجازاً لعلماء الحديث ، أما التلقى فغير مشكوك فيه وقد يلجأ الصوفيون في اسناد أخذ الطريق الى الخضر عليه السلام الذى هو وليُّ خالد يجدد شبابه كل عشرين ومائة عام مرة ويحبب أقطار الأرض باستمرار ويذهب حيث يأمره الله بحسب حاجة خلقه اليه وذكر السمناني اسمه كاملاً وهو ابو العباس بليان بن قليان بن فالج الخضر ، ويعتقد الصوفية أن فى الأرض ابدالاً هم دعائهم الباطنيون أو الروحانيون ولولاهم لمادت الأرض وخربت ، وعدد هم أربعون بدلاً ومعهم ثلثمائة تقيع وسبعون نحيباً وسبعة أمناء منهم الأبرار والأوتاد والأخيار وأربعة أعمدة ومنهم الأثافي وفوق الجميع قطب الفوثن وعن يمينه وشماله الامامان .

وروى المغربى أن الرئيس يعرف مرؤوسيه والعكس ممنوع .

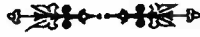
ومما تجب ملاحظته أن التصوف الاسلامى لم يكن نظاماً أجنبياً عن الاسلام ولا دخيلاً من النصرانية أو البوذية ، وان أصول التصوف موجودة فى القرآن وفى الحديث وفى العقيدة الاسلامية وشعائر الدين نفسه . وهذا لا يمنع من الاعتراف بأن أنظمة كالتصوف أساءها الزهد والتكشف كانت موجودة فى الأديان الأخرى ولكن التصوف الاسلامى كان نظاماً اسلامياً محضاً كما بينا وان حديث « لا رهبانية فى الاسلام » ليس حديثاً صحيحاً ولم يجزم أحد من علماء الحديث بصدق اسناده .

كذلك لم تكن حياة النبي (ص) والصحابة قبل المبعث وبعده حياة نعومة ولين وطراوة بل كانت على العكس من ذلك حياة خشونة وتكشف وتحمل . وهذه هى الحقيقة على الرغم مما جاء فى طبقات ابن سعد صاحب الواقدي مما يخالف ذلك فان الواقدي وابن سعد وأشباههما من علماء آخريات القرن الثانى للهجرة كانوا يلتبسون فى الأحاديث الضعيفة والريكة ما يبرر حياة الخنوثة والنعومة التى كان يعيشها ملوك ذلك الزمان وأمرائه

ولما كان التصوف أساسه الزهد والخشونة فقد بالغ بعض المتصوفين في ذلك من حيث التعفف عن سائر الشهوات فلا يبعد والحال هذه أن تكون جذور التصوف في حياة النبي وأصحابه

وبما تحسن الإشارة إليه أن كلمة الصوفي - نسبة الى الصوف - وهي النظرية التي قال بها ابن خلدون كان لها نصيب من الصحة فقد تعود بعض المتصوفين لبس الصوف، وقد جاء حين من الدهر عليهم اتخذوا فيه الصوف علامة مميزة لهم حتى كان «الثوري» أحد أمتهم يلبس الصوف فوق الحرير وقد انتقدوا عليه ذلك، وكان الصوف الأبيض هو المقصود ثم عدل الصوفيون عن هذه الثياب خشية القول فيهم بتقليد السيد المسيح أو حواريه أو رهبان النصارى

وقد أجمع العلماء على أن أكابر الأولياء من الصوفيين غير من ذكرناهم: مالك بن دينار، البوناني، السخيتاني، وهيب بن الورد بن اسباط، مسلم الخواص، البسطامي، التستري.



ترجمة الحكيم الالهى محي الدين بن العربي

ولد محمد بن على بن محمد بن احمد بن عبد الله الشيخ محي الدين ابو بكر الطائى الحائى الأندلسى المعروف بابن عربى فى شهر رمضان سنة ستين وخمسمائة هجرى بمرسية بالأندلس ، ولا نعرف عن طفولته شيئاً غير أنه لما نما وترعرع طلب العلم فى وطنه ف تلقى مبادئه على ابن بشكوال ، ثم سافر الى مصر ودمشق ومكة وبغداد وأقام فى بلاد الروم فى طلب العلم والرجال والسياحة .

ولما كان فى بلاد الروم سمع حاكها بصيته فانتقل اليه فلما وقع بصر الحاكم على محي الدين قال لمن معه « هذا رجل تذعر لرؤيته الأسود ! »

فمثل محي الدين فى معنى قول الحاكم عنه فقال « أنه لما كان بمكة خدم شيخاً صالحاً باخلاص فدعا له بقوله « الله يذل لك أعز خلقه » فكان من آثار هذه الدعوى ما شاهده ملك الروم

ولما وقت محبته فى قلب الملك المذكور أمر له بدار تساوى قيمتها مائة الف درهم ، ويروى أن سائلاً لقيه يوماً فطلب منه احساناً فقال له محي الدين « ما لى غير هذه الدار فخذها لك ! » وخرج عنها

قال ابن مسدى فى ترجمته « أن محي الدين كان ظاهري المذهب فى العبادات باطنى النظر فى الاعتقادات وأنه حجب ولم يرجع إلى بلده ، وأنه تلقى العلم على ابن بشكوال وعن علماء عديدين فى العواصم التى زارها فى رحلته ، ومن بينهم السلفى الذى أجازته فروى محي الدين عنه »

ولا ريب فى أنه برع فى علم التصوف والدليل على ذلك شهرته العظيمة فى العالم ، وكثرة مصنفاته ، وكان ينتقل من مكان إلى مكان للقاء علماء الحقيقة والمتعبدين

روى الشيخ شمس الدين فى وصف مؤلفات محي الدين « أنه كان ذا توسيع فى الكلام وذكا ، وقوة خاطر وحافظة وتدقيق فى التصوف وتأليف جمة فى العرفان قال شمس الدين

« ولولا شطحه في الكلام لم يكن به بأس ولعل ذلك الشطح وقع منه حال سكره وغيبته »
 وقال الشيخ قطب الدين اليونيني في تعقيبه على (المرأة) « وكان محيي الدين يقول
 أنا أعرف اسم الله الأعظم ، وأعرف الكيمياء »

قال العلامة محمد بن شاكر بن احمد الكتبي عن محيي الدين « الذي نفهمه من كلامه
 حسن ، والمشكل علينا نكل أمره إلى الله تعالى ، وما كلفنا اتباعه ولا العمل بما قاله »
 وتوفي محيي الدين في الثامن والعشرين من ربيع الآخر سنة ثمان وثلاثين وسبعمائة
 أي في الثامنة بعد السبعين من عمره

وكانت وفاته في دار القاضي محيي الدين بن الزكي ، وقام بنفسه الجمال بن عبد الخالق
 والقاضي الذي حصلت في بيته الوفاة وكان عماد الدين بن النحاس يصب عليه الماء

ثم حملوه إلى (قاسيون) حيث دفن بـدفن بنى الزكي
 وقبره الآن بالشام بالصالحية في مسجد يعرف باسمه ويجواره قبر الأمير عبد القادر
 الجزائري .

وقال الشيخ جمال الدين بن الزمكاني « الشيخ محيي الدين بن العربي البحر الزاخر
 في المعارف الالهية » وتقل بعض كلامه في فصل عقده في بعض مؤلفاته على فضل مقام
 الصديقية وقال « إنما نقلت كلامه — يعنى محيي الدين — وكلام من يجرى مجراه من
 أهل الطريق ، لأنهم أعرف بمقائق هذه المقامات وأبصر بها لدخولهم فيها وتحقيقهم بها
 ذوقاً ، والمخبر عن الشيء ذوقاً مخبر عن اليقين فاسأل به خبيراً »

ومن شعره الذى يستدل به على أسلوبه في النظم الصوفي قوله :

نفسى الفداء لبيض خرد عرب	لعين بى عند لثم الركن والحجر
ما استدل إذا ما تهت خلفهم	إلا بريهم من طيب الأثر
غازات من غزلى فيهن واحدة	حسنا ليس لها أخت من البشر
ان أسفرت عن محياها ارتك سنى	مثل الغزالة إشرافاً بلا غير
للشمس غرتها ، ليل طرتها	شمس وليل معاً من أحسن الصور

وفي شهر ربيع الأول سنة ٦٠٠ هـ لما كان الامام أبو عبد الله محمد بن العربي في تمام الأربعين من عمره يؤدي فريضة الحج ، كتب إلى صديقه وأخيه محمد بن عبد العزيز أبي بكر القرشي الهدوي نزيل تونس في تلك السنة رسالة أرسل فيها إليه تحية رفيقه عبد الله بدر الحبشي الذي كان معه في الحج كما أرسل سلامه إلى أبي عبد الله ابن المرباط وأبي عتيق والحاج معافى وأبي محمد الحافظ وعبد الجبار وعبد العزيز البابلي وعبد الله القطان ، ونمى إليهم محمد التائب الذي توفي بين مكة والمدينة على مرحلة من الأولى بين مرو وعسفان ، وقال الشيخ أنه بعد أن كتب تلك الرسالة طاف بها أسبوعاً وأمسها الحجر الأسود والملزم والمستجار وأدخلها البيت العتيق والموضع الفاضلة تيمناً وتبركاً ولم تكن تلك الرسالة قاصرة على تبليغ الأشواق ونمى صديق الجماعة ، بل كانت تنطوي أيضاً على مسألتين من أهم المسائل التي تلقى نوراً جديداً على حياة هذا العالم الصوفي ، وقد أطلق عليها اسم « رسالة الروح القدس » وهي تنقسم إلى قسمين : القسم الأول مناجاة بين محيي الدين ونفسه وهي شبه اعتراف ، وتعنيف وتهذيب ، والقسم الثاني يشتمل على أسماء معظم الرجال والمشايخ الذين لقيهم وتلقى عنهم وصحبه في حياته قال « ولقد لقينا من المشايخ والاخوان والنساء ما لو دونت أحوالهم وسطرت كما سطرت أحوال من تقدم لرأيت الحال الحال والعين العين في الأعمال والجدد والاشارات وصحة القصد ، فيأولى تعال قم مأتما للفراق ، ونندب اخواننا الظاعنين ! »

مشايخ محي الدين في الطريق

وأولهم أبو جعفر العربي ، وصل إلى أشبيلية في أول دخول محيي الدين إلى الطريق والثاني أبو يعقوب يوسف بن يخاف الكومي العسبي وهو من أصحاب أبي مدين ، وكان يقول « إذا شاء الشيخ أخذ بيد المريد من أسفل سافلين والقاء في عليين في لحظة واحدة » ، والثالث صالح العدوي ، والرابع أبو عبد الله محمد السرقى ، والخامس أبو يحيى الصنهاجى

السادس : أبو الحجاج يوسف السبريلي (نسبة الى قرية بالشرق على فرسخين من أشبيلية) ويروى لنا محيي الدين أن الشيخ يوسف هذا كان يمارس الطب الروحاني

فقد رأى محبي الدين عنده رجلاً في عينيه وجع شديد يصبح منه مثل المرأة النفساء (كذا) فاصفر وجه الشيخ وقلع يده المباركة ووضعها على عينيه فسكن الوجع من جبينه واضطجع الشخص كأنه الميت ثم قام وخرج مع الجماعة وما به من بأس . وروى الشيخ ابن العربي رواية من قبيل القصص العجيبة وهي أنه كانت لشيخه يوسف السبريلي هرة سوداء شديدة النفور من عامة الناس ولكنها تأنس للأولياء وتميزهم

السابع : أبو عبد الله محمد بن قسوم وكان يعيش من صناعة القلنسوات ويرزقه الله حيناً من غير تعب ولا سعى

الثامن : أبو عمران موسى بن عمران المارتنلي حبس نفسه في بيته ستين عاماً ، وكان على طريق المحاسبي ، لا يقبل من أحد شيئاً ولا يطلب حاجة لنفسه ، ولا لغيره

التاسع والعاشر : الشقيقان أبو عبد الله محمد الخياط وأبو العباس أحمد الاشبيليني ، وكان الأول شديد البر بوالدته حتى ماتت وكان الثاني يُنادى من وراء حجاب

الحادي عشر : أبو عبد الله محمد بن جمهور كان يكره الشعر ولم ينشده في حياته وإذا سمع دفناً وضع أصابعه في أذنيه

الثاني عشر : أبو علي الشكاز وكانت صناعته نوعاً من الدباغة

الثالث عشر : أبو محمد عبد الله بن محمد بن العربي الطائي عم محبي الدين نفسه

الرابع عشر : أبو محمد بن عبد الله بن الأستاذ المروزي وكان من خدام أبي مدين

الخامس عشر : أبو محمد عبد الله القطان ، كان لا تأخذه في الله لومة لائم عرض بنفسه للقتل مراراً من كثرة سبِّه لأفعال السلاطين وما هم عليه من مخالفة الشريعة ، عرض عليه السلطان أن يجلس مجلسه فقال « لا ، فإن مجلسك مفضوب ، ودارك التي تسكنها أخذتموها بغير حق ، ولولا أنني مجبور ما دخلت هنا حال الله بيني وبينك ! »

وبالجملة كان هذا الشيخ على نوع من المبالغة في قول الحق بغير مبالاة

السادس عشر : أبو عبد الله محمد بن أشرف الزندي وهو من « الابدال » لم يأو الى معمر قرياً من ثلاثين سنة

السابع عشر : موسى أبو عمران السيد راني ، كان من « الابدال » وكانت له عجائب وغرائب

أشهر مؤلفاته

بلغت مؤلفاته ٢٠٠ كتاب ذكر منها بركن الأملاني في فهرست الكتب العربية ١٥٦ كتاباً وذكر أما كن وجودها واكثرها في التصوف ، وبمضها في الجفر وأسرار الحروف :

- (١) الفتوحات المكية ، في معرفة الأسرار الملكية
- (٢) التديرات الألهية
- (٣) التنزلات الموصلية
- (٤) فصوص الحكم في خصوص الكلم ، وله شرح بقلم ابن سويديكين سماه « نقش الفصوص »
- (٥) الأسرا الى المقام الأسرى - نترأ وشعراً
- (٦) شرح خلع النملين
- (٧) الأجوبة المسكنة ، عن سؤالات الحكيم الترمذى
- (٨) تاج الرسائل ومنهاج الوسائل ، وهو غير تاج التراجم
- (٩) كتاب العظمة
- (١٠) كتاب السبعة ، وهو كتاب البيان ، والحروف الثلاثة ، التي انمطت وأواخرها على أوائلها
- (١١) التجليات
- (١٢) مفاتيح الغيب
- (١٣) كتاب الحق
- (١٤) مراتب علوم الوهب
- (١٥) الاعلام ، بإشارات أهل الالهام
- (١٦) العبادة والخلوة
- (١٧) المدخل الى معرفة الأسماء ، وكنه ما لا بد منه ، والنقباء
- (١٨) حلية الأبدال
- (١٩) الشروط ، في ما يلزم أهل طريق الله تعالى من الشروط
- (٢٠) المقنع في ايضاح السهل الممتنع
- (٢١) عنقاء مغرب ، وختم الأولياء ، وشمس المغرب
- (٢٢) مشكاة الأنوار فيما روى عن الله عز وجل من الأخبار
- (٢٣) شرح الألفاظ التي اصطلحت عليها الصوفية
- (٢٤) محاضرات الأبرار ومسارمات الأخيار - في خمسة مجلدات
- (٢٥) ديوان محي الدين ، وهو مجموع القصائد التي قالها ، غير الشعر الذي حل به كته

ملخص كتاب الفتوحات المكية

في معرفة الأسرار الملكية

كتاب « الفتوحات المكية التي فتح الله بها على الشيخ الامام العامل الراسخ الكامل خاتم الأولياء الوارثين برزخ البرازخ محيي الحق والدين » مؤلف من أربعة أجزاء كبار تقع في اكثر من ثلاثة آلاف صفحة ، ويندر من يمكنه أن يلم بهذا الكتاب في فصل أو في جملة فصول ، لأنه والحق يقال كالبحر الزاخر في علوم الحقائق والتصوف وأحكام الشريعة متزج بعضها ببعض ، ولا ريب في أن هذا الكتاب قد ألف بالهام ولا يمكننا أن نتعرض لتفسير بعض ما جاء فيه من الآراء نثراً وشعراً مما انقسم جمهور المسلمين بسببه فرقا ، فمن قائل أن المؤلف له شطحات ، ومن قائل أنه كتب ما أراد برموز والغاز ، يدركها أو بابها للوهلة الأولى .

ومن قوله شعراً في مفتتح الكتاب البيتان المشهوران اللذان يحتاج بهما قوم من الفريق الاول وهو قوله :

الرب حق والعبد حق ياليت شعري من المكلف ؟

إن قات عبد ، فذاك ميت أو قلت رب أتى يكلف !

ومن الفصول المهمة في هذا الكتاب الفصل « في علم الحق وعلم الأحوال وعلم الأسرار » وفصل في « اعتقاد أهل الاختصاص » وفصل في « معرفة الروح » ويقرر محيي الدين في فاتحة كتابه أنه قبل بدايته في تأليف هذا الكتاب قد كُفِّ بوضعه من ذي مقام عظيم ، ثم قال « ثم أظهرت اسراراً وقصص أخباراً لا يسع الوقت إيرادها ، ولا يعرف أكثر الخلق إيجادها فتركها موقوفة على رأس منبها ، خوفاً من وضع الحكمة في غير موضعها »

ولم نجد لصوفي نفساً طويلاً في الشعر والنثر كنفس هذا الامام ونضرب لذلك مثلاً قصيدته الهمزية التي مطلعها :

لما انتهى للكعبة الحسناء جسمي وحصل رتبة الأمانة

وختمها

فاشكرمى «عبدالعزیز» الهنا ولتشكرن أيضاً أبا العذراء

شرعاً فإن الله قال اشكر لنا ولوالديك وانت عين قضاء

وبجانب الفصول التى ضمنها الأسرار والرموز ، فصول جليلة ظاهرة فى أحكام الشرع
مثل : فصل الوضوء ، وأحكامه ، وأسرار الطهارة ، وأفعال الصلاة ، بتوسع واسهاب
لا مثيل لهما فى أى كتاب آخر من كتب هذا العلم

وتكلم فى الجزء الثانى فى منازل الأولياء ، ومقام أهل المجالس وحديثهم ونجواهم ،
وفى حظ الرسل من ربهم ومقامهم من مقام الأنبياء ، ومقام الأنبياء من الأولياء ، وفى
هذا الفصل تفصيل بين نبوة الشرائع والنبوة المطلقة ، فهم من الأولياء إذا كانوا أنبياء
شريعة من الدرجة الثالثة ، وإن كانوا فى النبوة اللغوية فهم فى الدرجة الثانية ، وإن
الأولياء هم الذين تولاهم الله بنصرته فى مقام مجاهدتهم الأعداء الأربعة ، الهوى ، والنفس ،
والدنيا ، والشیطان ، والمعرفة بهؤلاء أركان المعرفة عند المحاسبى

ومن الرسل من لهم خصائص على أمتهم ، ومنهم من لا يختصهم الله بشىء دون
أمته ، وكذلك الأولياء فىهم أنبياء أى خصوا بعلم لا يحصل إلا لنبي من العلم الإلهى
ويكون حكمهم من الله فيما أخبرهم به حكم الملائكة ولهذا قال فى نبي الشرائع « ما لم تحط
به خبراً » أى ما هو ذوقك يا موسى مع كونه كلم الله ، فخرق السفينة وقتل الغلام حكماً ،
وأقام الجدار مكارم خلق عن حكم أمر إلهى ، كحف البلاد على يدى جبريل ومن كان
من الملائكة ، ولهذا كان الأفراد من البشر بمنزلة المهيمنين من الملائكة ، وأنبياءهم منهم
بمنزلة الرسل من الأنبياء

وبعد أن أفاض المؤلف فى تفصيل النبوة وأسرارها وأحكامها ، تكلم فى الحب
والسكر ، والتوبة ، والمجاهدة ، والخلوة ، والتقوى ، ومقامى الخوف والرجاء ، والفرق بين
الشهوة والإرادة ، وشهوة الدنيا وشهوة الجنة ، والفرق بين اللذة والشهوة ، ومقام
الحشوع ، والقناعة ، والتوكل واليقين ، ومقام الذك وأساراره ، والفكر وأساراره

ثم تكلم في أسماء الله الباطن منها والظاهر ، وفي الأسماء على العموم ، وانتقل إلى الكلام في حضور القلب بتواتر البرهان ومنزل الحوض وأسراره من المقام المحمدى ، ومنزل تزاور الموتى وأسراره من الحضرة الموسوية

وفي الجزء الثالث من الكتاب أفاض المؤلف في الكلام على الحضرة الموسوية والحضرة المحمدية ، وتكلم على منزل الامام الذى على يسار القطب وهو منزل أبى مدين أحد أئمة الصوفية بينجانه بالآندلس وهو ممن لم يلهمهم محي الدين .

كلام محي الدين فى المهدي المنتظر

ثم تكلم على المهدي المنتظر وفي معرفة نزول وزرائه فقال في ج ٣ ص ٣٦٤ : « اعلم أن الله خليفة يخرج وقد امتلأت الأرض جوراً وظلماً ، فيملؤها قسطاً وعدلاً لو لم يبق من الدنيا يوم واحد ، طول الله ذلك اليوم حتى يلى هذا الخليفة من عترة الرسول يواطئ اسمه اسم رسول الله ، يبايع الناس بين الركن والمقام ، وهو أجلى الجبهة أفنى الأنف ، أسعد الناس به أهل الكوفة يقسم المال بالسوية ، ويمدل في الرعية ، ويفصل في القضية ، يمسى جاهلاً بخيلاً جباناً ، فيصبح أعلم الناس وأكرمهم وأشجعهم . يمشى النصر بين يديه ، يعيش خمسا أو سبعا أو تسعا ، يصلحه الله في ليلة بفتح المدينة الرومية بالتكبير في سبعين الفاً من ولد اسحاق ، يشهد الملحمة العظمى ، مأدبة الله بمرج عكا ، يبید الظلم وأهله ، يرفع المذاهب من الأرض ، يفرح به العامة أكثر من الخاصة ، ويبايعه العارفون بالله من أهل الحقائق عن شهود وكشف ، له رجال إلهيون يقيمون دعوته وينصرونه هم الوزراء ، ينزل عليه عيسى بن مريم بالنارة البيضاء شرقى دمشق بين مهرودين ، متكئاً على ملكين ، يقطر رأسه ماء مثل الجمان ، يتحدث كأنما خرج من دماس ويقبض الله المهدي إليه طاهراً مطهراً ، وفي زمانه يقتل « السُفياقي » عند شجرة بغوطة دمشق ويخسف بمجيئه في البيداء بين المدينة ومكة »

ثم تكلم المؤلف في العرش والهواء والفلک والبرزخ ، وفي معرفة الأمة البهيمية

أما الجزء الرابع والأخير من هذا الكتاب النفيس، فبدأه بمعرفة منازل الميت، والحي ليس له الى رؤيته سبيل ، ومعظم هذا الجزء في تفاسير أحاديث قدسية أو الهامية منسوبة الى الله عز وجل مثل :

(١) « من دعاني فقد أدى حق عبوديته ، ومن أنصف نفسه فقد أنصفني »

(٢) « من سألني فما خرج من قضائي ، ومن لم يسألني فما خرج من قضائي »

(٣) « أسمى حجاب عليك فإن رفعتها وصلت الى »

(٤) « أحبك للبقاء معي ، وتحب الرجوع الى أهلك »

ولولى الله السيد محمد عبد السلام رضى الله عنه الذى انتقل الى البرزخ في هذا الوقت تفسير بليغ عجيب لهذا الحديث .

وهذا الجزء الرابع كالأجزاء الثلاثة السابقة بمحز آخر في الحكمة الالهية والفلسفة الشرعية وذكر الأسباب والنتائج والأسرار الباطنية والألفاظ العليا فى الكون والخلق والشريعة والوحي والالهام والولاية والقبطانية ولا يليق بعالم أو متصوف أو أديب أن يبقى بدون المام بهذا الكتاب الذى يمد فريداً فى بابه فى سائر اللغات

أما قبر الشيخ العظيم فقد اكتشفه فى الشام السلطان سليم الأول العثماني ويزكرون ان الشيخ كان ذكر عبارة رمزية للدلالة على قبره وتاريخ اكتشافه ونصها « عندما يدخل السنين فى الشين يكشف عن قبر محي الدين » والمقصود بذلك عند دخول السلطان سليم بلاد الشام يكشف قبر هذا الحكيم .



اعتراف محبي الدين ومناجاته بينه وبين نفسه

قال محبي الدين « رأيت في منامى كأني أُدخلت الجنة ولم أكن رأيت ناراً ولا حشراً ولا حساباً ولا شيئاً من أهوال القيامة ، ووجدت في نفسي راحة عظيمة ، فلما استيقظت علمت أن في حالي بعض اختلال ، وأن نفسي ادعت فوق حالها من جهة ما أعطاه الله من العلم ، ولو كانت متحققة بالحق تحقّقاً عقلياً مقدساً الهيكاً يغنيها عنها لم تلبذ بدخول الجنة ، فأرادت أن تقيم على الحجة القاطعة من جهة تقسيم الحقائق الانسانية ومراتبها ، فلم أسمع لها ، ودارت بيني وبينها المحاسبة الآتية :

ابن العربي - يانفس لا أتركك على دعواك حتى أعرض أحوالك على كتاب الله وسنة رسوله (ص) فإن وافقت ذلك سلمت لك ، وإن وجدتك دون ذلك فانا ألطف بك وأرحمك بأن أمشي بك على أحوال أهل الصفة وعلى أحوال الصحابة والتابعين وتابى التابعين فإن قصرت عن شأوم فالنار أولى بك

نفسه - أما النبي (ص) فلا أعرض حالي مع حاله أدباً معه ، وكذلك القرآن فإنه البحر الأعظم ، ولكن حسبك من دون القرآن والنبوة فخذ في مراتب الولاية وأنا المنقادة السميمة السهلة المطيعة

ابن العربي - أخرجني اسنى ما تدعين وأعلاما تحفظين ، وأنا أعرض أولاً حال أهل الصفة نفسه - قل !

ابن العربي - كان سبعون من أهل الصفة يصلون في ثوب ، فمنهم من يبلغ ركبتيه ومنهم أسفل من ذلك ، والله ما أجمع لهم ثوبان ، ولأحضر لهم من الأطعمة لوانان ، ناشدتك الله يانفس ، فهل أنت أفقر منهم ؟

نفسه - لا

ابن العربي - فلست أذن منهم ، أستحي من الله وأرجى على عبقك ولا تطاولي لقوم لست منهم في شيء !

نفسه - على بغيرم فليس لي هنا قدم

ابن العربي — قال عمار بن ياسر وهو يسير على شط الفرات « اللهم لو أعلم أن أرضي لك عني أن أتردى فأسقط فعلت ، ولو علمت أن أرضي لك عني أن ألقى في هذا فاعرق فيه فعلت » ناشدتك الله يا نفس ، هل خطر لك هذا قط في رضى الله لا تبغين به بدلا ؟

نفسه — لا والله فانتقل بي عن هذا !

ابن العربي — هذا عمر بن الخطاب لما أسلم قال له النبي (ص) « يا عمر استره » قال رضى الله عنه « والذي بمتك بالحق لأعلنه كما أعلنت الشرك ! » ناشدتك الله يا نفس هل قتلت قط في دين الله تعالى حامية عنه في موطن دونه النفوس الحداد ، وعدم الناصر يغلب فيه على ظنك أنك تقتلين فيه ؟

نفسه — لا والله ، وإنما قاربته هذا المقام ، ولكن بسياسة وطلت بها نفوس الأعداء بحيث أن غلب على ظني الأمن والعافية في دمي

ابن العربي — فارجمي !

نفسه — نعم ، هات غيره

ابن العربي — كان عثمان بن عفان يطعم الناس طعام الأمانة ، ويدخل بيته فيأكل الخبز والزيت ، هل فعلت هذا مع أصحابك قط ؟ آثرتهم باللطيف وقنعت بالخشن

نفسه — لا والله ، بل كنت على أحد وجهين معهم ، ان لم يكن عندي طعام غير ما جعلت بين أيديهم شاركهم فيه ، وان كان عندي أرق منه أكلت وحدي ذلك ، مثل الحلو أو الخوشكنان ، وأقول هذا غذاء لين والبس على نفسي بهذه الترهات حتى لا أتنفص به عند أكله ، وأقول هؤلاء الاخوان في مقام التربية فينبني أن لا أزرع حب الشهوات في قلوبهم بطعامهم مثل هذا ، ومقامي لا يؤثر فيه هذا الطعام ، فلا بأس بتناولى اياه فأسكله على هذه الحال وقد عميت عن مطالبة الحق ، في موازنة المعاشرة وأدناها أن أشاركهم في خشونتهم لما أعرفه من تأثير الحقائق ، ولا شك أن عثمان ما فعل هذا في بدايته وإنما فعله بعد التحليك

ابن العربي — بارك الله فيك يا نفس اذ أنصفتني

نفسه — الحق أحق أن يتبع هات غيره

ابن العربي — هذا الامام على كان اذا أرخى الليل سدوله وغارت نجومه يتمثل في محرابه قابضاً على لحيته ويبكى بكاء الحزين وهو يتضرع بقوله « يا ربنا ! » ثم يخاطب الدنيا بقوله « غرى غبرى ، واخذعى سوى ، فقد تبت عنك ثلاثاً ، فمرك قصير ، ومجلسك حقير ، وخطرك كثير ، أواء ! من قلة الزاد وبعد السفر ، ووحشة الطريق » فهل صاحبت هذه الحال استصحاب هذا الامام ؟

نفسه — لا والله ، انما هي بوارق تلمع ، وأهلة تطلع ، في أوقات دون أوقات ، والغالب الشتات ، لولا انى أريد أن أقف منك على أحوال هذه السادة لطويت معك بساط المناظرة وعدلنا عن هذه المحاضرة .

ابن العربي — هذا الذى بشرت غير ما مرة أنك في مقامه : أبو بكر الصديق (رض) (وهذه إشارة الى أن محي الدين بن العربي كان في مقام الصديقية) خرج حين توفى رسول الله (ص) وعمر يكلم الناس ثم قال بعد أن تشهد « أما بعد فن كان يعبد محمداً فان محمداً قد مات ، ومن كان منكم يعبد الله عز وجل فان الله حي لا يموت ! » ثم تلا قوله تعالى « وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل ، أفان مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ؟ » الآية ، فسكن جأشهم بالقرآن وهو لم يزل ساكن القلب مع الرحمن ، ناشدتك الله يانفس هل حصلت بالسر الذى تدعيه أنه قد حصل لك من الحق حالا ومقاما من تعظيم الله ما علمت به تعظيم من عظمه الله من جهة تعظيم الله اياه ؟

نفسه — لا والله ياولى ، انما أنا بين فناء وبقاء ، وتلاش واتعاش ، واقبال وادبار ووصول ورجوع ، وما كنت فهمت هذا من هذا الكلام الذى خرج من فم الصديق حتى نهتنى عليه ، فانتقل بى عن هذا المقام فقد قصم ظهرى

ابن العربي — ان النبى (ص) عاش في البؤس وضنك العيش حتى رق له عمر لما أثر شريط السرير في جنبه فقال عمر « تذكرت كسرى وقيصر » فقال النبى (ص) « اما ترى أن تكون له الدنيا ولنا الآخرة ؟ » أين أنت يانفس من قول سلمان الفارسي حيث ذكر ما فتح الله على المسلمين من كنوز

كسرى فقال « ان الذى أعطاكوه وفتحه عليكم وخولكم لمسك خزائنه ومحمد (ص) حى ، ولقد كان يصبح وما عنده دينار ولا مد من الطعام ، بم ذاك يا أخا بنى عبس ؟ » فانظروا يانفس كلام هذا الصاحب وشرحه لحالة النبي (ص) وتكريفه وتقريسه بقوله « بم ذاك ؟ » ثم أنه لو كانت الدنيا تنال على حسب المراتب عند الله من الرتبة لكانت كلها لرسول الله (ص) وهذه حالته فى دنياه ولم يرض لقرة عينه بنته فاطمة أن تنال فيها راحة ولا توسماً ، هذا وقد رأى أثر جبل القربة فى عنقها من حمل الماء وأثر الرحي من الطحين فى يديها ، وجاءه السبي فلم ير أن يسطيها خادماً يحول بينها وبين ذاك الشقاء الذى نزل بها ، وأعطاهما بدل ذلك تسبيحاً وتحميداً وتكبيراً وقال هو خير لكم ، فأين أنت يانفس وهذا العارف فلا الحق رضا لنبیه ولا انبى (ص) رضا لابنته ووصيه فهل قنمت يا نفس بمد أن لم تحدى لك قدما مع أحد من الصالحين ؟ فن أنبتت ؟ وبمن تأسيت ؟

نفسه — أتبتت هواى ، فتأسيت بشيطان مدح فى المعرفة ، مكب على الدنيا مثلى ، فأثمرلى الدعوى ، وعزأتى من ملابس التقوى ، وأنا أتوب الى الله وأنفزع اليه فى الوفاء والعدل والميزان !

[وبعد أن أسترسل محي الدين فى ذكر أخبار قويس القرنى وعبادته وزهده ومقابله لهرم بن حيان ختم مناجاته بقوله لنفسه]

ابن العربى — فهذا يا نفس من بعض أخبار قويس الذى أحبته الله وفى الله ، ولولا خشية التطويل لأشبعناك من أخباره وأخبار أمثاله من سادات التابعين ، ولكنك قنمت بهذا القدر ، فالتزى طاعة الله وطاعة رسوله (ص)

قال محي الدين بن العربى « فسلمت اسلاماً جديداً — يقصد نفسه — الله يشبثها عليه ، وأخذت منها اليهود التى أخذ النبي (ص) على نساء المؤمنات ، فالتزمت ذلك كله عارفة قدر ذلك ومالها فى الوفاء به ، وما عليها من الرجوع عنه »

« هذا ياولى — مخاطباً صديقه عبد العزيز المهدي — أبقاك الله ما اتفق بينى وبين نفسى فى مكة المشرفة »